لغة النعناع

بالرغم من أنني لم أركب الطائرة من قبل وقدمي تدبُّ لأول مرة على أرض هذا البلد، أحسستُ بأنني ما زلتُ في بلدي وأنني على ألفة شديدة بالمكان، ربما لطبيعته الدينية أو الروحانية. وبرغم ألفة المكان، وجدتُ الحنينَ ينمو داخلي نحو بلدي، نحو الشوارع والوجوه، نحو المقاهي والمطاعم، نحو النيل، نحو أرض ما عدت أزورها إلا قليلا....

عندما بحثتُ عن مقهى، اكتشفتُ أن المقاهي – كما أعرفها وأعايشها – ليست متاحة في البلد الجديد. لكن المشروبات يتم تقديمها في أي مكان: في الأسواق التجارية، في المطاعم، في الأكشاك، في أماكن بيع السندوتشات، على الطرق السريعة، في وِرَشِ إصلاح السيارات... قلتُ لنفسي:

- على الأقل أشرب كوب شاي ساخن جدًّا بنعناع كثير قد يعوِّض قدرًا من الرغبة في التدخين على المقهى المُفْتَرَض.

قلتُ للبائع:

- شاي كشري بالنعناع سُكَّر زيادة.
- الكشري في المطاعم المصرية.
- شاي كشري.
- ما معنى شاي كشري؟

- غير مغلي.
- نغلي الماء فقط.
- إذن شاي بالنعناع سكر زيادة.
- أي نعناع؟
- نعناع مصري.
- لا يوجد شيء اسمه نعناع مصري.
- نعم!
- هناك نعناع حساوي ونعناع مغربي.
- هل يمكن أن أراهما؟

نظر إليَّ البائع كأنه ينظر إلى مجنونٍ أو إنسانٍ لا يعرف شيئًا عن العالم. ولولا قلة الزبائن في ذلك الوقت بعد صلاة العصر، ما كان صبرَ أساسًا على كلامي الطويل. كما أنني أحسستُ بأنه يشعر بالملل، ولم يستمع إليّ طول كلامي إلا لرغبته في التغيير، ولو بكلام مجنون كما خمَّنتُ من نظراته نحوي. مدَّ لي نوعين من النعناع: النعناع المصري الذي آلفُه ونعناع آخر رائحته زاعقة جدًّا. أشرتُ بيدي إلى النعناع المألوف وقلتُ له:

– ها هو النعناع المصري.

– هذا نعناع مغربي.

طوال عمري أعرف أنه مصري. كنتُ أزرعه بنفسي تحت شجرة الليمون، وبجانب البيت، وعلى حافة مجرى الماء وبجانب موتور المياه، ثم صرتُ أزرعه في الشرفة بعدما هاجرتُ إلى القاهرة، أو أشتريه من السوق.

أحسستُ بأن اللغة مقرونة بالمكان، مقرونة بمن يستخدمها، مقرونة بمن يتفق معك على الاستعمال الذي تقصده، أحسستُ بأنها حيوانٌ بريٌّ قد تستأنسه وقد يستأنسه غيرك، لكنه يظل هناك في البر أو الغابة بكامل عنفوانه وطبيعته، وحتى إن استأنستَه تظل صورته البرية في نظرِه هي الأصل، وتخيَّلتُ آلافًا من الصفات التي تُلصق بالنعناع، فربما يقول آخر على هذا النعناع ذاته إنه نعناع سوداني أو جزائري أو تونسي أو سوري أو إماراتي أو تركي أو هندي أو صيني، وما إلى ذلك بعدد بلدان العالم، بل بعدد كل بلدة داخل كل بلد.

أعدتُ على العامل طلبي:

- شاي بنعناع مغربي سكر زيادة

والحمد لله أنه لم يسألني عن معنى السكر الزيادة.

قرَّرتُ أن أجرِّب النعناع الآخر في مرة قادمة وأن أحتفظ في جيبي بدفتر صغير أُسجِّلُ فيه ما أعرفه من مسميات وما قد يقابله في هذا البلد الجديد.

٢٢ ديسمبر ٢٠١٠